

## العمل الإيجابي القاعدة الثابتة لعمر مديد أ. د. علاء الدين باشار \*

الإيجابية في الحركة قاعدة ارشادية من قواعد رسائل النور، تركز على العلم، والمعرفة، والتبليغ، والإقناع، والود، والشفقة. وعلى طريق هذا النهج يتلقي ويتشارك المجددون كافة. وقد تلقى هؤلاء جميعاً الموعظة نفسها من رسول الله #، وابدوا حساسية كبيرة للسير في هذا الطريق حسب شروط عصرهم. فالإمام الغزالي، والأمام الرباني، والشيخ عبدالقادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالهم من العظام جميعاً قد سلكوا الطريق نفسها. وكانت غايتهم المشتركة جميعاً جذب الناس نحو حدود مرضاة رب العالمين، وأن يكونوا وسيلة لسعادتهم الأبدية. وللاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مكانة خاصة بين هؤلاء العظام الكرام الذين اصبحوا مظهراً للحديث النبوي «العلماء ورثة الأنبياء» (1) بكل معنى الكلمة. وميزته هذه تتبع من هول عصره، ونكبة زمانه.

وفي موضوع له تحت عنوان «حوار في رؤيا» يخبرنا عن مجلس مهيب وقد اجتمع فيه ممثلون من كل العصور فخطبوه قائلين : «يا رجل القدر! ... ويا رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك!... بين رأيك في هذا الموضوع. فان لك رأياً فيه.»

لقد جاهد ممثلو كل عصر من حاول ابعاد الإسلام عن صراطه المستقيم العام، وتضليل المؤمنين وصرهم عن اعتقاد أهل السنة، من شيع الغافلين والتعساء. أما عصر بديع الزمان فهو على فارق كبير من تلك العصور، ففي زمانه استهدف الأركان الإيمانية، والقيت الشبهات في القلوب المؤمنة من خلال اسئلة «لأي شئ ..؟ ولماذا..؟»، واصبحوا في ريب من امرهم وعقيدتهم. وبالإضافة لذلك فقد اصبح الكفر والضلالة والسفاهة في زمانه بهيئة شخص معنوي عارم سيطر على الأرض كافة واستهدف بشكل مخطط الإيمان والإسلام والأخلاق.

فهذا الأستاذ العظيم الذي حمل على عاتقه معنى وظيفة التبليغ والأرشاد للوقوف حيال حركات الإفساد التي لم تتشاهد لها مثيل في التاريخ القى دوراً قيمة لدفع الشبهات، ورفع ايمان المؤمنين من التقليد الى مستوى التحقيق من ناحية ومن ناحية أخرى بين للمسلمين كيفية السير في دروب وعرة، مليئة بالالغام والأشواك والدواهي من خلال ما سطر من الرسائل والملاحق. فالحركة الإيجابية البناءة اساس لهذا السبيل السامق وسيره المطرد.

فالأستاذ النورسي قد واجه بابتسامة مؤلمة لا غير كل ما لاقى من التعذيب والظلم، وكيد له من المكائد الشيطانية لأجل دفعه الى القيام بحركة سلبية. وقد استكمل مسيرته السامية لأجل انقاذ ايمان البشرية جمعاء، وحتى الذين ظلموه، قابلهم بضبط النفس والأناة، دون ان يتزعزع ويتصرف بعداء وشحناء.

ويستهل الأستاذ النورسي آخر رسالة له بجملة تعتبر خلاصة لقواعد الأرشاد والتبليغ التي حاول تطبيقها طوال حياته، كالاتي:

«ان واجبنا القيام باعمال ايجابية بناءة وليست تخريبية سلبية، بل القيام بوظيفة الايمان ابتغاء مرضاة الله وحده لا غير ومن دون التدخل في امور موكولة اليه تعالى. فنحن مكلفون ان نصمد صابرين على كل المضايقات لأجل احلال النظام واستتاب الأمن في ربوع البلاد» (2) وفي هذه الجملة تقدم لأنظارنا أروع نماذج الحركة الإيجابية والسلبية. فالعمل بمقتضى مرضاة الله هو الإيجابي، والعمل للنفع والرياء هو السلبي.

والعمل للخدمة الإيمانية هو الإيجابي، والعمل للكفر والضلالة هو السلبي.  
والتوكل على الله هو الإيجابي، والمداخلة لتدبير الله وشؤونه هو السلبي.  
والمحافظة على أمن المجتمع هو الإيجابي، وتوليد الخلاف والمشادة والإخلال بالأمن والسلام هو السلبي.  
والصبر والشكر هو الإيجابي، والتمرد والإستعجال هو السلبي.

\*\*\*

والإيجابية تعني الثبوت، والثبوت يعني ما تم اثباته وبرهنته، وما قدّم لافادة الآخرين.  
فالإيجابي هو الإيمان، والسلبي هو التخريب....  
يقال لتشييد بناء على ارض كانت خالية فقراء بالأمس وتقديمه لاستفادة الآخرين ايجابية واثباتاً،  
بينما لإزالة بناء كان بالأمس قائماً، وجعله في حالة لا يستفاد منها سلبية.  
والسلبية تعني الدحض والنفي، والنفي يعني الإنتراع والإبعاد والإزالة، وادعاء عدم وجود شيء  
ما. لذا يقال لمن وقع في الكفر لا إيمان له. فمثل هذا الرجل قد هدم قصر إيمانه، ويقال أيضاً لمن  
قام بتخريب جنان أخلاقه؛ عديم الأخلاق، وهنا يكمن حركة سلبية..  
والإنسان الصم هو جاهل بعالم الأصوات. فالأصوات بالنسبة إليه لا وجود لها، فيمد طبيب حاذق  
شفيق يده ويداويه ويشفي مرضه، ليتلاقى مع نعمة السماع. عندها يثبت عالم الأصوات لدى هذا  
الإنسان، وعمل الطبيب حركة ايجابية بنّاءة.  
وازالة نعمة الإستماع من هذا الإنسان وجعله صماً هي حركة سلبية..  
وكذلك الأمر في ظاهرة الرؤية. فالذي لا يبصر لا يمتلك من علم الكون إلا بقدر ما تمتد إليه  
يديه، فعندما تقومون بمعالجة عين هذا الإنسان، يبدأ بصره يجول في النجوم، والشمس، والقمر،  
والجبال، والسهول، ويتسع عالمه الخاص الى عالم يمكن الأطلاق عليه عالم بغير حدود.  
فالإيجابيات والسلبيات كثيرة بحيث لا تحصى، ونجد بينها أعلى مرتبة من مراتب الإيجابيات في  
هذه العبارة:

«العمل للإيمان خالصاً لوجه الله وحده»

فالخدمة الإيمانية تفيد اكبر معاونة ومساعدة لبني الإنسان، وهي رمز أكبر الإيجابيات، فيها ينتزع  
من القلب الكفرَ ويبتعد، ويقام بدلاً عنه صرح الإيمان الشامخ.  
فالإنسان الذي يحظى نتيجة هذه الخدمة بنعمة الإيمان، تنتسج دائرة علاقته المنحصرة بما يرى من  
المخلوقات، وتصيح موصولة برب العالمين، ويكون عقله الغارق في المادة قد وجد خالق العوالم  
والموجودات كافة. ويتخلص من اللامبالاة، ولا يكون سائماً عاطلاً مفلوت الزمام دون صاحب  
وحام، كما ينجو من ألم جهل ما بعد الموت، فيبدأ بالإنغمار بفرحة معرفة من هو بصير قد خلق  
الرؤية، وموجدٌ قد اوجد السمع، ومصورٌ قد صورَ جميع الصور، ومحي قد وهب الحياة لجميع  
الأحياء.

فمثل هذا المدد والعون لإيمان هذا الرجل لا يشبه اطلاقاً مداواة عين لا تبصر، ولا معالجة اذن  
صماء، بل مثل هذا الخدمة الإيمانية احسان ابدى له، وهي اكبر وأهم من جميع الإمدادات  
والمساعدات التي تقدم لأجل دنياه الفانية بما لا تحصى من المرات. فليس في الجنة عمى ولا  
صماً ولا جوعاً ولا عطشاً... وليس هناك مكان لأي ألم، ولا يستطع أي من الحرمان والنقصان  
أن يبطأ قدمه الى تلك الدار المستقرة. وتقابل هذه النعمة التي يعجز العقل عن أدراكها، ألم  
وعذاب جهنم التي يعجز العقل أيضاً عن الإحاطة بها. واساس الخلاص من جهنم وعذابها، ونيل  
الجنة ونعيمها هو الإيمان، لذا تعتبر اكبر خدمة يمكن ان تقدم للإنسانية هي خدمة الإيمان....  
وقد كثف المرشد الكبير الأستاذ النورسي كل جهده في انقاد الإيمان، وركزه عليه، فهو طبيب

وحكيم معنوي ومجدد فريد لا نظير له.

حيث يقول:

«انني في تيار الايمان ويواجهني تيار الكفر، ولا علاقة لي بأي تيار آخر»(3) ويقوله الوجيه هذا يفيد أن الحركة الإيجابية هي الخدمة الإيمانية، أما الحركة السلبية فهي الحركة الكفرية اللاإيمانية.

وكما أن الإيمان إيجابي واثبات، والكفر سلبي، كذلك الخير جميعاً، والحسن كافة إيجابي، وما يضادها سلبي ونفي، فعند ذكر الحركة الإيجابية يتبادر الى قلب الإنسان أولاً تحكيم الحقائق الإيمانية، ومن ثم إقامة الخير والصدق وجميع مجالات المفيد على أساس هذا الإيمان المتين وفي بدايته العبادة والأخلاق الحميدة .

نيل رضا القلوب إيجابي وكسرها تخريب ، والشفقة إيجابي، والحدة سلبي، والصبر إيجابي، والتمرد سلبي، والعفو والمسامحة إيجابي، والإنترقام سلبي، والتوجه للآخرين بوجه طلق إيجابي، والحفارة اليهم سلبي، وحسن الظن إيجابي، وسوء الظن سلبي ونفي. فالقلب الراسخ بالإيمان تترعرع فيه الأخلاق الحميدة والسجايا السامية بشعبها كافة، والطريق الى هذا يمر من تثبيت الحقائق الإيمانية في القلب بصورة تحقيقية، وقد سار الإستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في هذا الطريق ووفق فعلاً.

\*\*\*

وفي حالة مراعاة طالب النور ما في رسائل النور من اسس الحركة الإيجابية كافة، وقيامه بخدمة إيمانية خالصة إن لم يتوصل الى ما يتمنى من نتيجة في ساحة الإرشاد والإصلاح لا يقع في اليأس حيث يختم الدستور المذكور بالنقطة الآتية:

«عدم التدخل في تدبير الله»

وحسبما تلقينا من دروس رسائل النور: أن خلق الأسباب من شؤون الله وتدبيره.

فكما ان الله هو الرزاق فهو الهادي أيضاً. وكما أننا نزرع الحبة، ونعتني بها، ونهئى شروطها ولا نتدخل بما تنبت من الحبات وعددها سواءً كانت عشرة أو مئة حبة، وننتظر تلك النتيجة من قدرة الله ورحمته لا غير، يجب علينا أيضاً أن لا نتدخل بتسنبل ما نزرع في القلوب من حبات الحقائق ونواها. فالقلوب في قبضة الله وهو الهادي. وما نقرأ ونتناقل من الحقائق لا تنبت ولا تتسنبل إلا بلطفه تعالى، وليس بإختيارنا وإرادتنا...

فنحن نضغط على المفتاح والله يخلق الضوء، ونحن نقدح الزناد والله يخلق النار. فهو الذي يضيء نور الهداية في القلوب ، وهو الذي يوقد نار الحب فيها.

فنحن نلوذ الى كنف ربنا الرحيم ولطفه، ونلجأ اليه وندعوه.. وكما نحن عباده فالذين نقابلهم من الناس عباده أيضاً. ونحن ندعو عباده الى سبيله بغية رضاه، وما عدا ذلك فهو خارج عن ارادتنا وطوقنا ومسئوليتنا.

فالله تعالى يقول في القرآن الكريم وما على الرسول الا البلاغ (المائدة: 99).

ويتبادر الى ذهن الإنسان سؤال مهم : لماذا اصبحت هذه الحقيقة الربانية من أهم شروط الحركة الإيجابية؟ ومع هذا السؤال تتجسم في خيالنا مضاد الإيجابية وهي السلبية....

فان نقول: إن الذين ينشغلون بوظيفتهم الأساسية لا يجدون وقتاً للإنتغال بالأمر السلبية.

ونقول أيضاً: عندما لا يجد الذين يتركون وظيفتهم الأساسية مجالاً آخراً لينشغلوا به، يلهون

أنفسهم بالحوادث الخارجية والنتائج الإجتماعية، فيدب في نفوسهم القلق أولاً، ثم يهونون في اليأس

والقنوط، ويتحرون السلوان في الحركات السلبية، ويتركون التبليغ ويسعون في النميمة والقبيل

والقال. ويدعون الاصلاح وينزلقون في التخريب، وينفرون الناس ولا يؤلفون قلوبهم.

إنهم يريدون ملء ما لا تُسدُّ من الفجوة والفراغ إلا عن طريق التبليغ والنشر بالقوة والإكراه. بينما منهج القرآن الكريم يقول لا إكراه في الدين ويبين لنا علماء التفسير أن عدم جواز الإكراه ليس في المسائل الدينية فقط ، بل في أي شأن آخر، ويوضحون آية لا إكراه في الدين أن الإكراه لا مكانة له في الشرع، وهو تصرف لا يلائم طبيعة هذا الدين. (4).

وذلك لأن الإكراه حركة غير ايجابية، ولا يتوصل الإنسان بالإكراه للمعرفة، ولا للعلم ولا للأخلاق الفاضلة... ولا تثمر شجرة الإكراه ثمرة الإرشاد مطلقاً.

فكيف يمكن ادخال الإيمان في قلب شخص بالإكراه في حين لا يمكن إكراه طفل على عمل معين؟ فالقلوب لا تخضع للإكراه ولا تقبل الإكراه. والإكراه لا يجري حكمه إلا على الأبدان، أما القلوب فلا يتمكن منها لا الحب ولا الإكراه عنوةً وإجباراً. بل على العكس من ذلك يسوق إجبار القلوب على الحب الى العناد فيورث فيها نفوراً لما تحبونه، وحباً واقبالاً لما تبغضونه.

وهناك مثل جميل يتضمن هذه الحقيقة «ما هكذا (بالقوة) تورد يا سعدُ الإبلُ».

\*\*\*

ومن شروط التبليغ بذر الحبة حسب اصول الزرع ، وفي هذا الخصوص توجهنا وصية أستاذنا:  
«ان مسلك رسائل النور القول اللين المشحون بالنزاهة والطف»(5)  
وإن لم يظهر تأثير كلامنا على الرغم من طرح دعوتنا بأحسن ما يمكن من الأسلوب والشكل ولين القول، فيجب علينا أن لا نقع في اليأس والقنوط. وذلك لأجل استنبات البذرة وإيتاء ثمرتها ينبغي ان يكون المنبت صالحاً، والمناخ ملائماً، فلا تظهر الورد في الموسم القارس، ولا تُسْتثمر من الرمل والحصيات. فللعوالم الداخلية لمخاطبينا أهمية كبيرة في هذا الجانب.

... وهو أعلم بمن اهتدى (النجم: 30)  
فهذه الآية الكريمة اكبر مصدر طمأنينة وتسليية للمؤمن الذي يقوم بوظيفة التبليغ حقاً.

\*\*\*

وعبارة أساسية أخرى:  
«نحن مكلفون بالتحلي بالصبر والتحمل بالشكر ضمن عملنا بخدمة الايمان التي تثمر الحفاظ على امن البلاد»  
فالعبارة تتضمن في مستهلها ارشاداً للفائمين بشئون الدولة، ويؤكد على درس مهم أنه لا يمكن تحقيق راحة المجتمع إلا من خلال حركة إيمانية ايجابية، فناهيك عن إحداث طلاب النور المشاكل فان كل طالب نور يصبح بمثابة «حارس لتأمين سلامة المجتمع وراحته»(6).  
والارشاد الثاني موجه لجنود هذه الخدمة المقدسة:  
«احذروا ان تتوسلوا بأي عمل سلبي تخريبي تجاه مضايقات من لا يفهم دعوتكم التي تؤدونها باخلاص أو يفهمها بشكل خاطئ، بل عليكم ان تعصموا بالصبر وتتوسلوا بالشكر تجاه المضايقات»

ويقّم طالب النور توصية الأستاذ النورسي بالشكر كما يلي: «هناك كثير من الناس يتحملون مختلف انواع مضايقات لأجل مطالب دنيوية أو غير مشروعة، فيجب عليّ اذن أن اتلقى ما اتعرض لها من المشقة والمتاعب في سبيل اعلان دعوة رسول الله # واعلاء دعوة الإيمان والتوحيد على أنها لطف إلهي واشكر الله تعالى عليه». إن طريق تحكيم الحقائق الإيمانية في القلوب، وعكس الأوامر الإسلامية الى واقع الفرد وحياته تمر من الصبر والشفقة، ولا تسمح بالحركة السلبية!.. والمعلوم أنه لا يجوز النزاع والصراع في الداخل. فهل لقيتم شخصاً يلطم وجهه ويوكزه بنفسه؟! وهل شاهدتم من يضرب بالمعول على رجله المصاب بالروماتيزم؟!!

ولبديع الزمان درس في الجهاد الداخلي له حقيقة ووزن:  
«يصد التعدي الخارجي بالقوة، لأن اموال الاعداء وابناءهم غنيمة ، أما في الداخل فليس كذلك، بل هو عمل ايجابي معنوي ببناء يعمر بالاخلاص ما هدم، فالجهاد الخارجي يختلف تماماً عن الجهاد الداخلي»(7)

على الرغم من تجرع صاحب هذا القول الحبس والتشريد والنفي والتسميم والمظالم الكثيرة لمدة ثمانية وعشرين سنة من عمره فقد سعى الى محافظة أمن المجتمع وسلامته بقوله:  
«الحفاظ على الأمن الداخلي لئلا يصيب تسعين بالمئة من الناس الضرر جراء ما يقوم به عشرة بالمئة من الزنادقة الملحدين»(8) وسعى بدروس رسائل النور الى نصب مراقب في قلب كل واحد.

\*\*\*

وقد خط الأستاذ العظيم لطلاب النور الذين يطلبون القيام بخدمة الإيمان نهجاً مستتباً من القرآن الكريم ضمن أربع خطوات:

«العجز .. والفقر .. والشفقة .. والتفكر...»(9)  
فالعجز والفقر أساسا العبودية. والشفقة توصل الى اسم الرحيم، والتفكر يوصل الى اسم الحكيم. ونيل تجلي اسم الرحيم وفيضه ينتج الخدمة الإيمانية.

\*\*\*

والرسول الكريم # الذي تجلى عليه هذا الاسم باعلى مراتبه مثلما تجلت عليه بقية الأسماء الإلهية، فكما قال عند مقدمه الى الدنيا بقوله «أمتي .. أمتي» قاصداً إيمان وصلاح أمته، سيظهر نفسه يوم الحشر الأكبر عندما: كل الناس وحتى الأنبياء منهم «نفسى.. نفسى» ويطلب من ربه في المقام المحمود قائلاً «أمتي .. أمتي» كذلك راجياً من الله تعالى أن يغفر لأمته ويخلصهم من عذاب النار والجحيم ويدخلهم الجنة، كما بيّن لنا أستاذنا.

وقد احس مجدد هذا العصر العصيب الأستاذ النورسي نداء الرسول الكريم # واستغاثته لربه بقوله «أمتي .. أمتي» في أعماق روحه وضميره، وسعى ليعاني ما عاناه الرسول # من الحرقه والحسرة والألم على مصير أمته.

وعند لقائه بالسيد أشرف أديب صدرت من فمه هذه الكلمات الحارقة:

- لم أشعر ولم أتبين مما أرى أمامي من حريق متصاعدة نيرانها الى الأعالي تحرق أبنائي وتضرم إيماني، وإذ أنا أسعى لإخمادها وإنقاذ إيماني يحاول أحدهم أعاقتي، فتزل قدمي مصطدماً به. فليس لهذه الحادثة الجزئية أهمية تذكر وقيمة أمام ضراوة النار، فتعساً للأفكار الضيقة وسحقاً للنظرات القاصرة!«(10).

تعتبر هذه الكلمات أكبر انعكاس لصدى نداء «أمتي .. أمتي» في هذا العصر. وما أحوج هذا العصر العصيب ان ينال الحصة الكبيرة من نداء الرسول الكريم # واستغاثته!!  
فالأب يحب أبناءه جميعاً، ويذكر بالأخص منهم المريض، والمتجرع المكابد لآلام الموت، ويحترق فؤاده عليه ويرتعد أكثر فأكثر. لذا فقد قام الأستاذ النورسي بوظيفة ترجمة الحصة الكبيرة من نداء «أمتي» الخاص لعصرنا بأكمل وجه، وسعى بما ألف من مئة وثلاثين رسالة لأنقاذ إيمان أمة محمد #، وقد تجرد من كل شئ في سبيل هذه الوظيفة الجليلة، وعاش حياة مليئة بالضيق، والشدة، والتسميم، والمحاكم، والإعتقال، والنفي.

«لم اذق طوال حياتي التي تناهز الثمانين شيئاً يخص لذائذ الدنيا، فقد قضيت عمري كله في ساحات الوغى وزنانات الاسر وسجون الوطن ومحاكمه، لم يبق شئ من الآلام والمصاعب لم اتجرعه.»(11)

وان تحمل المصاعب والضيق في سبيل دعوة الإيمان هي من سنة رسول الله #، وقد طبق استاذنا هذه السنة أيضاً بأكمل وجه.

فلقد قذف الرسول # الذي ارسل رحمة للعالمين يوم طائف بالحجارة حتى جرح من مئة وأربعة عشر موضع، ولم يدعو على احد ممن قذفه بالسوء، بل قال «يا ربي انهم أناس لا يعلمون» ودعا لهم بالهداية، وقد سار وارثه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في هذا العصر العصيب المفجع على ما سار اليه الرسول الكريم #، وقال في حق كل من ظلمه وابخس حقه: «لما كانت «الشفقة» دستور حياتي منذ ثلاثين سنة، واساس مسلكي ومسلك رسائل النور، فاني لا اتجنب التعرض للمجرمين الذين ظلموني وحدهم بل لا استطيع حتى مقابلتهم بالدعاء عليهم» (12)

وفي رسالة أخرى يبين ما لقي طلابه الأمجاد من صنوف الأذى والتعذيب، وما تعرضوا له من الإمتحان الصعب قاتلاً: «ان واجبنا نحوهم طلب الهداية لهم فحسب. فلا يرد في قلب اي طالب من طلابي الثأر ولو بمقدار ذرة، بل اوصيهم دائماً مقابل ما لقوه من العنت الثبات في خدمة رسائل النور والوفاء بها» (13)

ومن المسائل المهمة للحركة الإيجابية التي أكد عليها المجدد الكبير بكل حساسية هي تأمين وحدة واتحاد المسلمين العاملين في حقل الخدمة الإسلامية بمناهج مختلفة، وقد وقف حول هذه النقطة المهمة كثيراً و أكد عليها ايما تأكيد، وسعى ليمنع تحول اختلاف المشارب والمناهج الدعوية إلى العداة والتخاصم، وكمثال أود نقل النقاط الثلاثة الأوائل من الأمور البالغ عددها تسعة أمور كالآتي:

- 1- العمل الإيجابي البناء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون ان يرد الي تفكيره ، او يتدخل في علمه عداة الآخرين او التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلاً.
- 2 - بل عليه ان يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الاسلام - مهما كان نوعها - والتي ستكون منابع محبة ووسائل اخوة واتفق فيما بينها فيتنفق معها.
- 3- واتخاذ دستور الانصاف دليلاً ومرشداً، وهو ان صاحب كل مسلك حق يستطيع القول : «إن مسلكي حق وهو أفضل واجمل» من دون ان يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له ان يقول: «الحق هو مسلكي فحسب» او «ان الحسن والجمال في مسلكي وحده» الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها. (14)

فقد اتبع الاستاذ النورسي طوال عمره الإيجابية في الحركة دائماً، وكضرورة لازمة لهذه الحركة الإيجابية وقف تجاه كل حركة سلبية أياً كان نوعه. فكما واجه في رسائل النور حركات الإلحاد ، والكفر، والشرك، والضلالة بالمباحث الإيمانية، كذلك ألف رسالة الإخلاص لمواجهة الرياء، وحب الظهور، وكسب إعجاب الآخرين، وكتب رسالة الأخوة ليسد قنوات أفات العداة، والشحناء، والبغض، والغيبة، بين المسلمين، وسجل المبحث الثالث من المکتوب السادس والعشرين للوقوف حيال العنصرية التي هي أكبر عدو للإتحاد الاسلامي، والخلاصة أنه ألف وكتب تجاه كل سلبية بحثاً أو رسالة ليبطل تأثيره وفعاليتها. ومن جملة هذه السلبيات وقف أيضاً بكل حساسية ضد مسألة «التكفير» الذي هو جرح غائر لمجتمعنا.

ولأهمية هذا الموضوع أود التطرق اليه بشئ من التفصيل. فإنطلاقاً من قاعدة «حسن الظن اساس بالنسبة للمسلمين» قد إجتنب عن التكفير اجتناباً كبيراً بدقة وحساسية.

«ان من يعرف «سعيد» عن كذب يعلم أنه يتجنب تكفير الآخرين تجنباً شديداً ما استطاع اليه سبيلاً، بل يحاول ان يجد تأويلاً حتى لو رأى كفراً بواحاً» (15)

اتهام المؤمن المذنب بالكفر وإخراجه عن دائرة الاسلام جناية كبيرة ، ومضاد لإعتقاد اهل السنة والجماعة. اذ حسب اعتقاد اهل السنة والجماعة ؛ لا يكون كافراً من ارتكب الكبائر من الذنوب. ولقد دامت مناقشة مسألة «هل يصبح مرتكب الكبائر كافراً أم لا؟» «عصراً عدة بين علماء أهل السنة والخارجيين والمعتزلة، فالخارجيون ادعوا كفر من يرتكب الكبائر من الذنوب وخلوده في النار، والمعتزلة قالوا أن من يرتكب الكبائر من الذنوب لا يعتبر مؤمناً ولا كافراً ، بل يكون في موضع بين الكفر والإيمان، وهكذا ضلوا بعيداً عن الحقيقة وتاهوا في الضلالة.

لقد مر تاريخنا المعاصر القريب من «دور فترة» اخرى ، حيث راجت شتى الخرافات، والأفكار البالية في الأوساط من جديد. واصبح التكفير مودياً ايضاً، ولكن هذه المرة ما كان يعرف المكفرون الخوارج جيداً، فقد حفظوا بعض الشعارات، وجعلوا منها ختماً بارداً، يختمون بها جباه كل من يواجهونهم، وكان هؤلاء في غفلة من حديث الرسول # المتعلق بالتكفير.

«عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله #: إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه» (رياض الصالحين 448/ رقم الحديث 1732/2)

يتضمن كتاب (السانحات) من بين كتب الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي عبارات رائعة، وجيزة، مقنعة، يجب على انسان هذا العصر حفظها كلمة كلمة، ويعيشها حرفاً حرفاً، وإلا يكون مرتكباً لكبائر من الذنوب بنفسه، ويبعد المقابل بغير علم عن الاسلام.

«ورد بهذا المعنى: ان هذا الشيء كفر. اي لم تنشأ هذه الصفة من الايمان، اي انها صفة كافرة. ويكون ذلك الشخص قد كفر لهذا السبب. ولكن لا يقال: انه كافر. ذلك لانه يملك صفات اخرى بريئة من الكفر قد نشأت من الايمان، فهو اذن يحوز اوصافاً اخرى نابعة من الايمان، الا اذا علم يقيناً ان تلك الصفة قد نشأت من الكفر، لانها قد تنشأ من اسباب اخرى. ففي دلالة الصفة شك، وفي وجود الايمان يقين. والشك لا يزيل اليقين. فينبغي للذين يجروا على تكفير الآخرين بسرعة، ان يتدبروا!» (16)

اذن قد تتواجد في مؤمن بعض الصفات غير النابعة عن ايمانه، بل عن جهله، وسفاهته، أو هناك مصادر أخرى تغذيه بها، فتعتبر هذه الصفات بأنها صفات «كافرة»، وهناك أيضاً في هذا المؤمن كثير من الصفات البريئة النابعة عن ايمانه، فهذه الصفات تمنعنا أن نسمه بالكفر، فإن لم تصدر عن فمه كلمة توجب الكفر، أو قام ببعض الأعمال التي تليق بالكفار ولم تتبع من ايمانه، فلا يمكننا ان نكفره إن لم نعلم يقيناً أنها أعمال صدرت عن الكفر، أو قام بها ناوياً وقاصداً إنكار الاسلام حسب المقاييس المذكورة آنفاً.

تمنعنا عبارة «في دلالة الصفة شك» ان نطلق الحكم القطعي. ويعني هذا هناك شبهة حول دلالة ما قام به من عمل، أو نطق به من كلام، أو ما احتمل من صفة على كفره. فإننا لا نعلم بصورة قطعية أنه قام بتلك الأعمال قاصداً الكفر. ولكننا نعلم أنه مؤمن، ولئن سألناه عن ايمانه لقال إنني مؤمن مسلم. وبمقضى هذا هناك يقين ، وقطعية ، بينما في كفره ظن وتخمين وشك، فلا نستطيع إبطال اليقين بالشك، ولا نستطيع ان نطلق عليه الكفر.

قد تصدر من فم مسلم جراً غفلة أو جهل منه كلمة تعد من الألفاظ الكفرية، فلا شك هناك مسئولية كبيرة في مثل هذا الأمر، حتى أن بعض علمائنا يقولون أن مثل هذا المؤمن تذهب حسناته السابقة كافة بعمله هذا. ولكن مع هذا يعتبر هذا الإنسان المفلس مسلماً. وليس بكافر. وفي هذه النقطة أود البحث عن حكم أساسي:

أن الإيمان كما يثبت بتصديق القلب وإقرار اللسان، كذلك يثبت الكفر بنفس الطريقة. وحسب هذا الأساس لأجل أن يوصم المؤمن بالكفر لصدور لفظ كفري منه يجب ان يصدق الكفر قلباً، ويقرره لساناً كنتيجة لما صدر منه.

لقد عارض الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي بعض من حاد عن الصراط السوي، المحتجين بالآية ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون لتكفير السياسيين الذين اصدروا القانون الأساسي وأعلنوا الحرية (فهؤلاء المساكين لم يعرفوا أن ومن لم يحكم هو يعني) «من لم يصدق» (17) أي الذي لا يصدق بما أنزل الله... يعتبر ايضاح الاستاذ لهذه الآية الكريمة إفادة لعقيدة أهل السنة. وذلك لأنه حسب عقيدة أهل السنة يعتبر الذي لا يطبق أمراً من أوامر الله تعالى، ولم يعمل بمقتضاه مذنباً فاسقاً ما دام لا يصدق ذلك الأمر ولا يعتقد به، فلا يكون كافراً. وقد اسرد الإمام فخر الدين الرزاي في تفسيره الكبير جميع وجهات النظر المتعلقة بهذه الآية الكريمة، وسجل من بين أصحابها وجهة نظر سيدنا عكرمة رضى الله عنه.

يقول سيدنا عكرمة رضى الله عنه:  
«قال عكرمة: قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله انما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله، الا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية، وهذا هو الجواب الصحيح والله أعلم» (18)

أختم موضوع التكفير بفتوى أحمد ضياء الكمشخاني الآتية:  
«لو صدر من احدهم قولاً يستلزم كفره من عدة جهات وينجيه من جهة واحدة، فينبغي على المفتي أن يختار تلك الجهة الواحدة. وذلك ان «حسن الظن في حق المسلمين هو الأساس...» (19) وفي هامش هذه الفتوى:  
«إن لم ينو الرجل الكفر فهو مسلم، وإن كان ناوياً الكفر فلا ينجيه فتوى المفتي».

\*\*\*

أود البحث بهذه المناسبة عن داء لنا شخصه وعالجه كتاب «المنظرات» من كليات رسائل النور :

قد يكون هناك اختلاف في النظر إلى السياسة الخارجية بين المسلمين، وهذه مسألة اعتيادية. فينبغي تلقيه بصدر رحب ضمن اطار حرية الفكر، إلا أنه قد تفقد مثل هذه المناقشات الموازنة، فيباشر المرء بتكفير مخاطبه المسلم عند احساسه بالهزيمة الفكرية أمامه قائلاً له «انك برأيك هذا قد ساندت النصارى ودخلت الكفر». وعندما تريدون ارجاعه إلى الصواب يواجهكم رافعاً صوته يقول الله تعالى في القرآن الكريم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء.

وصفة هذا الداء العضال في عدة جمل:

«المنهي عنه في هذه الآية الكريمة هو محبتهم من حيث ديانتهم اليهودية والنصرانية.. وايضاً، لا يكون المرء محبوباً لذاته، بل لصفته وصنعتة، لذا فكما لا يلزم ان تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمة، كذلك لا يلزم أن تكون جميع صفات الكافر وصنعتة كافرة ايضاً».

اذن تنتهي هذه الآية الكريمة عن ابداء الود والحب لليهودية والنصرانية، فمثلاً : حب دولة نصرانية من حيث نصرانيتها تكون داخلاً ضمن نهي هذه الآية الكريمة، أما الرغبة في صناعتها وتكنولوجياها وتقدير تلك الصناعة حق قدرها فهي خارج عن اطار هذا النهي.

تنتهي العبارة التي اقتبسناها آنفاً بهذه الجملة التالية:

«فان كانت لك زوجة كتابية، لا شك أنك تحبها» (20) . أي أن المسلم الذي يتزوج من أهل الكتاب، فمثلاً من فتاة نصرانية فعليه أن يحبها من حيث أنها زوجته، وليس له أن يبدي الحب

لنصرانيتها.

لقد كلفتنا حرماننا هذه الموازنة الدقيقة كثيراً من الأمور .

وقد سعيت في هذا المؤتمر بقدر ما سمح لي الوقت أن ابين مدى اتباع الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الحركة الإيجابية، وعزوفه عن الحركة السلبية، ووقوفه حيال جميع صنوفها، فلا يمكن فهم الحركة الإيجابية التي كانت شعاره الذي لا يتبدل طوال عمره المديد المبارك من خلال بحث واحد، أو بعدة أمثلة بالوجه اللائق به. وتتبلج هذه الحقيقة وتظهر أكثر وضوحاً عند مطالعة حياة ذلك المجاهد الكبير كاملة مع ما قدم لإستفادة البشرية من الرسائل البالغة مئة وثلاثين رسالة.

\* \* \*

الهوامش:

(1) el-Aclûnî, Keşf'ül-Hafa, 1745. Hadis

- (2) Bediüzzaman Said Nursî, Emirdağ Lahikası II, Envar Neşriyat, s.241.
- (3) Bediüzzaman Said Nursî, Mektubat, Sözlere Neşriyat, s. 66
- (4) Maide Suresi, 99
- (5) Elmalı H. Yazır, Hak Dini Kur'an Dili, cilt: 2, s. 860.
- (6) Bediüzzaman Said Nursî, Lem'alar, Envar Neşriyat, s. 176.
- (7) Yunus Suresi 56
- (8) Bediüzzaman Said Nursî, Tarihçe-i Hayat, Envar Neşriyat ,s. 652.
- (9) Bediüzzaman Said Nursî, Emirdağ Lahikası II, Envar Neşriyat, s.242.
- (10) Bediüzzaman Said Nursî, Tarihçe-i Hayat, Envar Neşriyat, s. 653.
- (11) Bediüzzaman Said Nursî, Sözlere, Envar Neşriyat, s. 476.
- (12) Bediüzzaman Said Nursî, Tarihçe-i Hayat, Envar Neşriyat, s. 629.
- (13) A. g. e., s. 629.
- (14) Bediüzzaman Said Nursî, Şualar, Envar Neşriyat, s. 372.
- (15) Bediüzzaman Said Nursî, Emirdağ Lahikası II, Envar Neşriyat, s. 80-81.
- (16) Bediüzzaman Said Nursî, Lem'alar, Envar Neşriyat s. 151.
- (17) Bediüzzaman Said Nursî, Şualar, Envar Neşriyat, s. 423.
- (18) Riyazü's-Salihîn, 1764. Hadis.
- (19) Riyazü's-Salihîn, Sünihat, Sözlere Yayınevi, s. 20.
- (20) Bediüzzaman Said Nursî, Münazarat, Yeni Asya Neşriyat, s.
- (21) Fahrudin Razi, Tefsir-i Kebir (Tercüme), Akçağ Yayınları. c. 9, s. 86.
- (22) A. Z. Gümüşhanevî, Ehl-i Sünnet yolu, Bedir Yayınevi, s. 68
- (23) Bediüzzaman Said Nursî, Münazarat, s. 26.